فنتازيا كورالية

فنتازيا كورالية
للبيانو والكورس والأوركسترا
مصنف ٨٠، مقام دو صغير

يجب أن أدلى إلى القارئ بأن ما أقدم اليوم لسيد الموسيقين لودفيج فان بيتهوفن لا يعتبر من أعماله الكبرى أو حتى الوسطى، ولا هو مما يجرى به الأداء الموسيقى مجرد التوارد، فيعتاده الناس، ويتقبلوه على علاته.

سنستمع إلى «فنتازيا كورالية» للبيانو والكورس والأوركسترا. وبيتهوفن حين يصف العمل بالفنتازيا يعنى تمامًا ما يقول، نتثبت من ذلك فى وصفه صوناتة البيانو رقم ١٤ مصنف ٢٧ المعروفة بصوناتة «ضياء القمر» بأنها «شبه فانتازيا». لم يصفها بالفنتازيا المطلقة وإنما قال: صوناتة فيها تكاد تكون فنتازيًا، وهو الوصف ذاته الذى نعت به الصوناتة رقم ١٣ والتى تحمل رقم المصنف ذاته Sonata quasi fantasia.

ويجدر بنا أن نحدد معنى هذه الكلمة: معناها الدارج فى لغتنا العامية يومئ إلى العبث، أو إلى نوع من «التهجيص»، ولو أنها كانت تعنى فى وقت ما نوعًا من استعراض البذخ أو الثراء، أو الفنطزة. ولكن الكلمة فى الموسيقى والأدب اصطلاح معناه: تأليف موسيقى أو أدبى متحرر من قيود الشكل أو القالب التقليدى.

ومع ذلك فإن ما سنسمع لبيتهوفن يدخل تحت ما يعرف بالتنويع الموسيقى Variation ومن حقنا هنا أن نستنجد بالسير دونالد توفى، وقد ضمها ناشر تحليلاته وشروحه تحت باب «التنويعات». ووضع توفى على

رأس شرحه وتحليله تسعة أقسام لهذه الفنتازيا الكورالية سنفصلها فى حينه، منها «لحن أساسى Tema مع مجموعة من التنويعات وكودا . ثم تنويع يتلوه «نماء وتفاعل»، فتنويع بطىء بكودا، وهلم جرًّا.

وبيتهوفن بالرغم من كل هذا يعنى ما يقول، فالفنتازيا الكورالية فى مجموعها لا تنحصر فى «تيما» وتنويعات، بل تنتقل بين ما يشبه الارتجال على البيانو، وما يعتبر حوارًا بين البيانو والأوركسترا، ثم يجىء الختام بدخول الكورس يردد أشعارًا ملحنة على «التيم» الأساسى. وكل هذا يعنى التحرر من قالب بعينه.

إن التسجيل الذى أقدم للفنتازيا الكورالية، جئت به من موسكو منذ نحو عشر سنوات، ومع ذلك ترددت فى عرضه طوال هذا الزمن. ولم تعد لى مندوحة عن تقديمه بعد أن استمع إلى «الفنتازيا» رواد أوركسترا القاهرة السمفونى بقاعة سيد درويش ممن شاركوا فى الاحتفال بالعيد العاشر لتأليف هذا الأوركسترا بوزارة الثقافة. ودعت الوزارة الأستاذ فرانز ليتشاور قائده الأخير عندما كان الأوركسترا تابعًا للإذاعة المصرية، وقائده الأول عندما انتقل إلى تبعية وزارة الثقافة. فقدم لنا «الفنتازيا الكورالية» وقد أدى القسم الغنائى فيها كورال الأوبرا، وجلست إلى البيانو السيدة مارسيل متى. فلم تعد لى مندوحة عن تقديم هذا العمل لأضمن له البقاء تحت سمع ألاف الموسيقى الرفيعة، وليضم إلى مجموعة ما قدمت من مؤلفات بيتهوفن.

والفنتازيا الكورالية لا تستغرق أكثر كثيرًا من ثلث ساعة، مما يهيئ لى فرصة التوسع فى تقديمها، لا لأهميتها فى ذاتها، ولكن لصلتها بالسمفونية التاسعة «الكورالية»، أو كما يقول السير دونالد «الفنتازيا الكورالية هى التى تبشر، ولسنوات كثيرة، بالسمفونية التاسعة. طابعها الخفة مما يسمح بإدخال الكادنسات بأسلوب هجره بيتهوفن منذ زمن

طويل، إلا عندما كان يرتجل على البيانو، ولأن طابعها المرح الساذج، ولأن بناءها شيء جديد، فإن أثرها على السامع مجلبة للسرور إلى درجة السخرية بالمتزمتين من عشاق بيتهوڤن، أولئك الذين يبدون علائم التبرم حيال هذا الخروج على القواعد».

ولنترك السير دونالد توڤي لنستمع إلى ما يقوله رومان رولان. ولاحظوا أنني اخترت اثنين من أبلغ وأعمق من درسوا وفهموا وشرحوا وحللوا أعمال بيتهوڤن وهما من القلة النادرة التي عنيت بالعمل الذي نسمع اليوم. وإذا كان توڤي قد خصص للفنتازيا شرحًا كاملا فإن رومان رولان اهتم بها كعلامة من علامات طريق بيتهوڤن إلى إبداع السمفونية التاسعة.

يجيء ذكر «الفنتازيا» عندما يتحدث رومان رولان عن بيتهوڤن، وكيف كان يفكر بإدخال الصوت الآدمي في السمفونية. وينفي رولان عن بيتهوڤن ما يتقوله عليه بعض النقاد، من أن دخول الصوت الآدمي في السمفونية التاسعة جاء عفوًا واعتباطًا، وأنه ندم فيما بعد. ألبته ا بيتهوڤن كان مشغولا بهذه الفكرة منذ سنوات. بل وفكر في تحقيقها على مدى واسع.

يظهر ذلك مما جاء في النص الشعري الذي طلبه بإلحاح من الشاعر كوفنر Kuffner: ضمن كلام هذا النص قول الشاعر «عندما يعمل سحر اللحن، وتنطق الكلمة التي تكرسه، يولد شيء عظيم.... وإن شمس الربيع، ربيع الكلمة وربيع اللحن، تسطع باجتماعهما».

لقد فكر بيتهوڤن بالفانتازيا الكورالية منذ سنة ١٨٠٠. وإذا كنا قد تحدثنا عن صلتها بالسمفونية التاسعة، فقد شاء لها القدر أيضًا أن تخرج إلى الناس لأول مرة في الليلة ذاتها التي خرجت فيها لأول مرة السمفونية الخامسة (الدومينور) والسمفونية السادسة «الباستورال»،

وهى الليلة التاريخية فى الثانى والعشرين من ديسمبر عام ١٨٠٨، وقام فيها بيتهوڤن بأداء دور البيانو. ويبدو أنه حتى تلك الليلة لم يكن قد دون ذلك الدور بعد فى الفقرات الانفرادية للبيانو، بل قام به فيما يقرب من الارتجال. وتصور أن حفلة تلك الليلة عزفت فيها السمفونية الخامسة، والسمفونية السادسة، والكونشرتو الرابع مقام صول للبيانو (أداه بيتهوڤن أيضًا)، وارتجل بيتهوڤن على البيانو فنتازيا أخرى، وغنت مغنية لحنًا «آريا»، وشارك الكورس والأوركسترا فى أداء حوالى النصف من القداس مقام دو (وهو غير القداس الاحتفالى مقام ري). وختم الحفل الذى استغرق نحو ثلاث ساعات ونصف بالفنتازيا الكورالية.

هذا كل ما عندى من تقديم تاريخى للعمل الذى نسمع. وإليكم تفصيل تقسيمه الداخلى، أى دون أن تتوقف الموسيقى: يبدأ على البيانو فيما يشبه الارتجال، بحركة «آداجيو»، وفى مقام دو من الديوان الصغير، يقول عنه توڤى بأنه خير سجل ثابت لبيتهوڤن صاحب الارتجالات الموسيقية الرائعة. ولم يكتبه إلا بعد مضى زمن على الحفل المشار إليه. فلنستمع إلى هذا المطلع على البيانو.

ثم يدخل الأوركسترا عقب هذا متلصصًا حذرًا، فى حوار مع البيانو، ثم يؤدى البيانو اللحن الأساسى كاملا، وهو لحن طفولى أخذه بيتهوڤن عن أغنية له لحنها فى صدر شبابه. فلنستمع إلى حوار الأوركسترا والبيانو، ثم دخول اللحن الأساسى منفردًا.

يقول السير دونالد توڤى إن خطة هذا المصنف تبدو وكأنها ابتهال إلى القديسة سيشيليا، حامية الموسيقى والموسيقيين. ولذا نسمع فيها الآلات المختلفة منفردة ومجتمعة، على التوالى: الفلاوتة، الأوبوا، الكلارينيت، فالباصون، وأخيرًا الرباعى الوترى. ويختم الأوركسترا كل هذا «بكوديتا» أى تذييل قصير، ثم يدخل البيانو بتنويع من مقام دومينور،

وبعده الفيولينات، وينتقل إلى مقام لامينور، ثم إلى تنويع فى مقام لا كبير على الكلارينيت فى حوار مع البيانو. وينتهى كل هذا إلى مقام فا كبير فالعودة إلى دومينور، ويستعد الأوركسترا لدخول الكورس بأداء اللحن الأساسى الساذج.

وتبدأ أصوات السولو بغناء الفقرة الأولى من القصيدة، ثم يتناولها الكورس جماعة بعد الفقرة الثانية. وإليك بعض ما جاء فى هذه القصيدة «إن تآلفات الحياة تخرج ناعمة حلوة تهز الأثير، كأنها خالدات الأزاهير التى تنبت من روح السلام. فالفرح والسلام يتعانقان عناق الموج، أو يتداعبان دعابة العباب. وأرواح البشر إذ تصعد إلى خالقها على أجنحة النغم، تتخلى الأرض عن سلطانها، ويتحول ابن آدم إلى روح حائم. عمّ نبحث إن لم يكن عن الطمأنينة والسلام حولنا، والفرح فى قرارة نفوسنا. وإنه الفن وسحر الفن يستوليان علينا، فيتحول الجذل والسلام نشيدًا صداحًا.

«المد الموسيقى يحوطنا بالأفراح، فلتتقبلى أيتها النفوس المبهجة عطايا الفن، هبة الرحمن الرحيم، أنزل الحب على قلوب عباده المخلصين».

فلتستمع إلى الفانتازيا الكورالية، مصنف ٨٠، وقد فصلت لكم أجزاءها. وهى مداولة بين السرعة والبطء، وتحول من الديوان الصغير إلى الكبير فى مقامات دو ولا وفا. وقد بدأت على البيانو فى مقام دو مينور، وتختم فى مقام دو كبير.